الفصل

١

المعاذير المبنية على وجهة نظر

أشكال التعامل في الحياة اليومية:

كيف يمكن التحادث، من دون كذب؟

لا تُعدّ المعاذير المبينة على وجهة نظر، من الكذب، بل لا تُعَدُّ حتى من الخداع أو التلفيق.. والمسألة هي أن المتحدث لديه وجهة نظر مختلفة، أو لديه وجهة نظر أخرى، أو رأي آخر. وهذه المعاذير تتضمن، على الأغلب، ذرّة من الحقيقة، وتكون هذه المعاذير، بالمناسبة على الدوام تقريباً، ذات نزعة إيجابية: فهي تتملّق، وتهدئ الخواطر وتزوّق، وتوافق، وتواسي.

وتعد المعاذير المبنية على وجهة نظر من أشكال التعامل، واللقاءات، التي نتعلمها ونحن كبار راشدون، ونستخدمها، والمرء لا يحتاج، بالمناسبة إلى توجيه خصوصي إليها. فكل الناس تقريباً، يتكيفون مع هذا الشكل من أشكال التواصل بين البشر، ويستخدمونه، من دون صعوبات. وهم لا ينفعلون حين استخدامه وهو لا يؤلم أحداً، ولكن يقال قبل كل شيء إن معاذير وجهة النظر هذه تعدّ معاذير لا مناص منها، كما أنها وسيلة حماية للذات جد ضرورية. وسواء أكنا نتصرف على هذا النحو أم ذاك، فإن لدينا طاقية إخفاء صغيرة لطيفة، تخفي حالتنا الحقيقية الراهنة.

obeikandl.com

ولا يحتاج أحد أيضاً، بالضرورة، إلى أن يلاحظ على الفور أن مزاجي اليوم سيء لأن زوجي أغضبني! كما لا يحتاج أحد أيضاً إلى أن يلاحظ على الفور أن عليّ أن أتحمل، في مهنتي، على وجه الخصوص إخفاقاً! كما لا يحتاج أحد أيضاً، بالضرورة إلى أن يلاحظ أنني مضطرب، ترتعد أوصالي من فرط الانفعال، لأنني سألتقي غداً بالزميل الذي يجاورني، وأشعر بالدوار الكامل من افتتاني من جراء مجرد التفكير في ذلك! فالمعاذير المبنية على وجهة نظر معينة تنشئ جواً مستعذباً خالياً من الالتزام، وتحمي بشرتي العارية مثلما يفعل القفاز، وبذلك لا يُعرّي المرء نفسه ومشاعره الحقيقية وآراءه.

الرجاء أن تلاحظ:

نحن نستعمل بالطبع كل هذه المعاذير التي هي غير ذات طائل لِتُمُوِّه حالتنا في اللحظة الراهنة. ولكن هناك وزن رئيسي يستقرّ على أية حال في حصن اللاشعور: الرجاء عدم الخوض في مناقشة! والرجاء عدم الإعراب عن رأي مبنيّ على التنقيب العميق! والرجاء عدم إصدار حكم، وعدم طرح أسئلة، أو فرض الإدلاء بأجوبة حاسمة! ونحن نظل نتلوّى بهذه المعاذير المبنية على وجهات نظر معينة، في كل الاتجاهات، لنتفادى كل هذه المشكلات. فكثيراً ما لا تتوافر لدينا الرغبة، ببساطة، وكثيراً ما لا تتوافر لدينا الجرأة. غير أننا لا نريد - على الأغلب، أن ندع هؤلاء الأفراد يزدادون اقتراباً من جوّنا الخصوصي! كما أن جوّهم الخصوصي لا يهمنا أيضاً على الإطلاق.

وهكذا نشرنا في كل مكان، الشباك المصطنعة للمحادثة. على أن المستوى يتنوّع إلى حدٍّ ما.. ربما عند أعضاء نادي الروتاري، أو في حفل استقبال دبلوماسي، على النقيض من اللقاء المسائي في «ناصية تشارلي»، أو على شراب الأنس عند الأصيل، في مقصف «العمة فريدا»، غير أنَّ الفرق لا يمكن الإحساس به إلا في اختيار الكلمات.

لقد حضرت، قبل سنوات، ذات مرة، مأدبة غداء عند جماعة الروتاري. وكان يفترض أن يكون ذلك بسيطاً، لا يلفت النظر، وكان أطفال أعضاء النادي قد تولوا واجب الضيافة، وكانوا يملؤون لنا الأطباق بحساء البطاطا المعدّ في المنزل وكانت ألقاب الدكتور والبروفسور تشكل الأغلبية، وحتى موقف السيارات أمام الفندق كان نموذجياً إلى أقصى الحدود، وكان التحادث مفعماً بالحيوية ومهذباً. وبعد ذلك خطر ببالي من جديد الفكاهة القديمة عن زائر باريس الذي سُئل عن تجاريبه الغرامية في ميدان بيكاديللي الملعون، فقال: «أجل... كلا... كلا... لقد كانت المسألة آخر الأمر بلا ريب، مماثلة لما كانت عليه في دينغو لفنغ، بالضبط».

وكانت محادثة النخبة من أهل نادي الروتاري مثلما كان عليه الحال في دينغولفنغ - إذ كان يدور الحديث حول الأطفال والمرض والرحلات، والمهنة. وثمة مجال معين يعدّ مؤثراً بالقياس إلى ألوان التزلّف والمجاملة الكلامية الودّية، غير المُلْزِمة. فقد كان كل منا يلقى صاحبه بمعاذير تعد تزويقيّة على الأغلب - ونفترق من جديد من دون انطباع، ولكن من دون ضغط أيضاً.

وكنا قد أعددنا لأنفسنا، من أجل أكثر أوضاع الحياة تبايناً، مخزوناً من العبارات التي تظل تتكرر المرة بعد الأخرى - والتي تظل جاهزة تحت تصرفنا، من دون جهد عندما يعرُض لنا من جديد، موقف مماثل لهذا. ويتم تكييف اختيار الكلمات والجمل المتماشية مع ذلك المجال الاجتماعي، أو المجتمعي. وهنا ينسجم المرء، ويتحدث باللغة ذاتها، ويفهم الآخرون ما المقصود بذلك. ويضرب المرء بيديه في مياه السباحة ذاتها.

كما يكون من يعطي الإيقاع الأساسي هو صبغة جيل معين.

على أن مجموعة من البشر الذين يتميزون بحداثة السن إلى حد بعيد سوف تنطبع، بلا ريب، بطابع شكلٍ معين من أشكال الحديث وتبادل التحية. وذلك أن مجرد التقاء رهط من الإخوة في السلاح في مطعم الندوة، أو في الحرم الجامعي، أو أثناء الحلقات الدراسية، يتم فيه إملاء مِزَق أو شذرات من الأحاديث مختلفةٍ كل الاختلاف، وهو يتميز إلى حد بعيد، مثلاً، عما يجري تداوله في ركن الزبائن الدائمين في مدينة صغيرة. ونحن نتعلم الحدود المفروضة على اختيارنا للكلمات، والمألوفة لدينا، والموافقة لمصالحنا واهتماماتنا، تبعاً لأعمارنا، منذ وجودنا في روضات الأطفال. وفي المدرسة، وفي المراحل المختلفة للتدريب المهني ندخل عندئذٍ في مجال يكون مألوفاً بالنسبة لنا بالاستناد إلى ثقافتنا ووضعنا المالي والاجتماعي.

أما داخل إطار الفئة العمرية ذاتها فقلما تستخدم المعاذير في الطفولة وفي المدرسة، ولنلاحظ ذلك جيداً - فهي معاذير! والمرء يستخدم اللغة البذيئة الفظة للتشهير بشيء ما أو للدفاع عن نفسه - بأسلوب مَنْ أفلت عنانه تماماً وبات من دون رادعٍ يردعه. وهذا جنون، وهو ما يصنعه الناس جميعاً.

«يا رجل، هذا الوغد أزعجني أيما إزعاج! وكان من الواجب أن يتلقى رفسة في خصيته، مثل هذا القذر، النجس! وفي مثل هذه اللهجة ينطلق الصوت عالياً، ويتوالى بروح عالية - في المترو، وفي الحافلة، وفي الشارع، إذ ينخفض حجم الثروة اللغوية إلى حدّ أدنى، وحتى في حالة لهجة الصداقة الفجة بين زملاء العمل، لا يكون التصرف بتحفظ، بل يكون مطلق العنان.

«يا رجل، أنت بايخ، سخيف حقاً! فإن ما قلته قذر، بل نَجِس! إنه قول مجانين! وسوف تتلقى صفعة مدوية على الفور، إذا فعلت هذا مرة أخرى! إنك لتثير اشمئزازي، حقاً!» أما المعاذير فلا يحتاج إليها المرء بعد - لا يحتاج إليها بين أقرانه وأنداده!

أما بالقياس إلى الكبار فيعدّ من المذهل أن تأتي هذه الهجمات أو الاتهامات مع لكمات وركلات، وصدمات، فيما بينهم، مع اقترانها بالزعيق والضحك. وأما عند الفتيات فكثيراً ما تقترن بالقهقهة الهستيرية والصراخ، وأما في حالة الغلمان فتقترن بزمجرات ادّعائية، مظهرية وجَلَبَة وصراخ. فالعبارة التي يقال بها: «أنتم لا تعنون شيئاً

بالقياس إلينا، فنحن الأكبر» هذه العبارة تستبعد الآخرين. وتُعدّ مِزَق الكلام غير المكتملة النطق، والتكرار المتواصل للشعارات والعبارات الدارجة، والسلوك الفظ، من الأمور غير المفهومة بالنسبة للبيئة. وذلك أن الوالدين يتذرّعان في هذه المرحلة بالصبر على أولادهم ويأملون أن تنقضي هذه المرحلة عما قريب.

وسواءً أكان هؤلاء الشباب فرادى أم كانوا ضمن الأسرة فهم يتسمون بكونهم أَلْيَن عريكةً وأحسن معشراً إلى حد بعيد، أما ضمن المجموعة فهم عصبة من الكلاب تنبح، ومن شأنهم ألا يُجَشِّموا أنفسهم عناء التفسيرات ولا التماس العفو، ولا حتى المعاذير، فهذه الألوان من السلوك يحتفظ بها القوم، لبعض الوقت، من أجل أولئك الذين يتمتعون بالسلطة: من المعلمين والمدربين، أو من أجل أولئك الذين يمنحون المال: من الوالدين والأقرباء.

والآن يغدو المرء يافعاً، وتكون له أسرة ومهنة، وبعض الالتزامات الاجتماعية بالطبع.

فكيف نتعامل مع هذا؟

إن البهو والاجتماع، والمحاضرة، والحجرات التي يلتقي فيها الناس مصادفةً واتفاقاً تعدُّ على وجه الخصوص، المباءات التي تتولد فيها المعاذير وألوان التلفيق والاختلاق، فكل من الحاضرين يشارك، وكلٌّ منهم يعلم ذلك، وكل يلفق حسبما يروق له، وما من أحد منهم يخاف من عواقب محتملة. «ما أجمل أن أراك! لقد ظللتُ طوال هذا الوقت

تنازعني نفسي إلى أن أهتف لك، ولكن كان ثمة شيء ما يحول بيني وبين ذلك دائماً! ألا ما أحسنَ عودةَ أحوالك إلى ما يرام، لقد طالما فكرت فيك!». «لقد لبثت زمناً طويلاً بعيداً عن البلد، وإلاّ لأبلغت عن مجيئي!. أما مشكلة المرء مع أسرته فأنت تعرف هذا أيضاً!». لقد أقبل اليوم زمن جديد، مهرجان جدٌّ ناجح! وكل شيء مرتّب ترتيباً جميلاً للغاية! ولقد بذل القوم في ذلك من الجهد ما بذلوا!».

فهل يدلي أحد هنا بالحقيقة؟ كلا، ولكن كليهما يهدف بذلك إلى الشيء ذاته: لغط مستعذب في الجو حولهما، وألوان من التزلف والمجاملة الكلامية، وزحف على القِفار يعبّر عن الارتياح، وقبل أن نُسأل، ويكون علينا أن نجيب يكون تحت تصرفنا، نحن جميعاً، معاذير بالغة اللطف، فنحن خليقون أن نومئ مبتسمين، ونقول: يا سلام، ويا عين ويا ليل، أو: دو، ري، مي، فا، صول، لا، سي... وكل ذلك خليق أن يكون الشيء ذاته. وهذا هو القالب والمألوف، من أجل تحاشي المسائل المتعلقة بالضمير، أو الحقائق، التي هي خليقة أن تعني عندئذٍ: رباه، ما أكثر ما يتّسم هذا بالإملال! إنها الناظرة السخيفة، مرة أخرى!».

«مَنْ عسى أن تكون هذه - أتراني أعرفها - أجل - ولكن من أين؟».

«ألم تكوني مريضة؟ بالسرطان؟ في العمود الفقري؟ لا بأس، لا يهم. فأنا أنسى على أية حال!».

«آمل أن نذهب عما قريب، ويكون الهذر قد وصل إلى نهايته».

وبعد وقت قصير لا يعود كلاهما يعرف كيف كانت الأقوال المجانبة للحقيقة والمستحبّة تتلألأ باعثة للمرح والبهجة على شفاههما.

على أن الذين يتسمون بخصوبة الخيال الإبداعي على وجه الخصوص هم المشاركون في الاحتفالات الفنية، كحفلات العرض الأولى، وحفلات التكريم، ولكن ما قولك أيضاً في الممثلين والمطربين الذين وجدتهم سيئين في الحقيقة، ولكنهم أقبلوا عليك وقد اشرقت وجوههم، ونفوسهم مسرورة لما يتوقّعون منك؟ هنا تصبح المسألة أصعب، وأكثر تعقيداً. على أن الزميلات طوّرن، قبل كل شيء، هنا، صيغة لحجب الحقيقة: «إلفيرا! لقد ظهرتِ في مظهر جذّاب آسر في الثوب الأحمر.. إنه يُخْرِج المرء عن صوابه، ببساطة! وكان منسجماً عليك إلى حد بعيد، ولم تكن عيني تشبع من النظر! وكان يتلاءم أجمل تلاؤم مع شعرك!».

أو: «كارل - أنطون!، لقد كنت تمثل من جديد، الظاهرة! بل الإشعاع - والغريزة الحساسة المرهفة - على نحو لا يلتبس بما عداه! أما المسرحية، فيما عدا هذا... أنت تفهم ما أعني - هنا لا أحتاج إلى الإفصاح عما في نفسي بمزيد من التفصيل! ولكن أنت - كما قلت...» وذلك لأنه يلوح في الأجواء، من دون إفصاح بالكلام، في مثل حفلة العرض الأولى هذه، أو في مثل هذا الاحتفال، في جوٍ مفعم بالسرور من جراء التوقعات، سؤال: «كيف كنتُ أنا؟ أوَكنتُ جيداً؟

وهكذا يستطيع المرء أن يميز تحاشي هذه الأجوبة بأنه عذر، بنظارة حمراء وردية وذلك أنها تنتمي إلى المعاذير المبنية على وجهة نظر معينة».

ومن هذه المعاذير العامة المبنية على وجهة نظر، تفضي خطوة قصيرة إلى المعاذير في الحديث المباشر - وعلى وجه الخصوص في محيط الأسرة والأصدقاء. وهنا سوف نقرر، على الدوام تقريباً، أن

المرء يسره أن يشطب على الأخطاء الجمالية الصغيرة. وكلما تقدمت بالبشر السنّ اشتدت حاجتهم إلى التأكيد على الانتماء إلى الأبناء والأحفاد أو الأقربين من ذوي القربى.

١- أخبار العائلة

تُسرد أخبار العائلة - ولا سيما في أيام الأعياد - من أفضل جوانبها، وذلك أن الرغبة المؤثرة في كثير من الأحيان، لدى الفرد المعني في أن يسرد ما يروق له، تدع هذه الاحتفالات تشرق ببريق خصوصي، وليست المسألة أن المرء يريد أن يثير حسد الآخرين، كلا، بل كل ما يريده المرء أن يكشف عن مدى ما أصاب هو وأبناؤه من الخير. ومن أجل ذلك تشكل أعياد الميلاد للأفراد، وأعياد رأس السنة، وعيد الفصح، أو عيد الأم، في كثير من الأحيان، بالنسبة لذوي هذا الفرد التزاماً يسره أن يستجيب له بدرجة تقل أو تكثر، ولكن سيكون هذا هو المتوقع...

وما زال من الأشياء الحية في ذاكرتي، كيف كانت أمي خارجة عن طورها، وكانت تكاد تتتابها الحيرة إذ كانت هناك رحلة تمّ التخطيط لها من قبل أخي، ورحلة أخرى من قِبَلي في يوم عيد الأم على وجه الدقة. ولما كانت زياراتنا تحدث في العادة على نحو بالغ الانتظام والتواتر، فإنني لم أستطع على الإطلاق أن أدرك علة ما انتابها من الهم والغم. وحاولت أن أهدّئ ثائرتها بقولي: «ولكن هذا لا علاقة له أبداً بتاريخ الرحلة! فأنا أزورك من قبل وسأزورك بُعَيد ذلك. فلم تنجح المحاولة، وقالت: «أفي يوم عيد الأم على وجه الخصوص! حين يقول الآخرون، دائماً: أما إن لك لأولاداً بررة إلى حدٍ بعيد! فما عساهم يقولون في أنفسهم حين لا يأتي إليَّ أحد منهم في يوم عيد الأم على وجه الخصوص!».

وقال زوجي يقترح عليّ، مهدئاً ثائرتي: «هلاّ قلت ببساطة إن السبب هو صهرك، فهو الذي حجز للرحلة!».

وعلمت ذلك فيما بعد - عن طريق خاص - عن صديقة طيبة لأمي، قالت: «أنا أعرف أنك كنت خليقةً، بالطبع، أن تكوني حاضرة في عيد الأم، ولكن الصهر... كلا، كلا، إنه لا يفكر، على أية حال، مثلما تفكر الابنة!».

فهل ينبغي لي أن أعترف لك؟ أنا لم أَنْفِ هذا العذر، وكانت لا تريد أن ترى صورة الأبناء التي لا يشوبها كدر، وقد تعرضت للشك فيها من قبل كل صديقاتها، وهكذا يتم إدخال المعذرة الحالية، العابرة، من دون ربط وثيق.

وهذه الصورة تعرفينها أيضاً:

«كان الفندق الذي اختاره أولادي حَسناً جداً في الحقيقة - كان صاخباً إلى حدٍ ما، ولكن الحافلات أمام الباب، وكان في وسع المرء أن يصل من هناك، بسهولة، إلى كل الأهداف، وكان مستحباً مع الجوّ الماطر الذي كان يسبب الرشح والعطاس في الأسبوع الأخير، ولم يكن للأولاد بدٌّ أن يذهبوا على الفور بعد عطلة نهاية الأسبوع...».

وتهدف المعاذير المبنية على وجهة النظر إلى إحداث انطباع مؤدّاه: أن أبناءها كانوا ينطوون على مقصد حسن بلا ريب! ومن طبيعة المرء أن يتهيّب أو يتولاه الخجل من قول الحقيقة، التي يمكن أن تتمثل فيما يلي: «فندق فيه جلبة، قد اختير من دون أن يكون أثيراً لدينا، على أنه

رخيص قدر الإمكان. وكان الطقس فظيعاً، ولم يكن للمرء بدٌّ من الانتقال بالحافلة، ولم يكن أمام الأولاد أربعة أيام يقضونها في عطلة، بل يومان».

ولكن هذه وجهة نظر غير مستحسنة. كلا، فالمرأة ترى المسألة رؤية مختلفة.. والقدح ما زال نصفه مملوءاً.

٢- أخبار الإجازة

أما أخبار الإجازة فيكون تأثيرها في النفوس أكثر ما يكون صدقاً في حالة تلك الشعارات الدعائية المنطبعة في الدماغ على نحو دائم. أجمل أسابيع السنة! والناس جميعاً يتحمسون لهذه الأيام وعلى هذا فلا بد أنها كانت جميلة. «لم تكن الأسعار باهظة، غير أني كنت أعرف هذا - بل كان يُعرض الكثير أيضاً. الانكفاء إلى داخل النفس والتفكر والتأمل في الذات، على طريقة ترانس ورايكي، ونحو ذلك... أما أنا فكان كل شيء جديداً بالقياس إليّ، ومن المؤسف أنه كان في كثير من الأحيان بالإنكليزية، ولم يكن من السهل فهمه - ولكن لا بد للمرء أن يشارك في شيء كهذا ذات مرة أيضاً، ولست نادماً على هذا... إنها تجربة جديدة كل الجدة!».

ومَنْ كان يصغي بدقة فسيلاحظ التقييد. ولكن المرء يريد أن يفكر تفكيراً إيجابياً!

وأخيراً فليس كل امرئ يشهد مثل هذه الإجازة غير المألوفة، وهنا لا يمكن أن يكون كل شيء سلاماً، وبهجةً، وطعاماً لذيذاً سهلاً.

أو ربما كان الأمر على هذه الشاكلة:

«وإذاً فقد كان فندق أومبريان رائعاً، حق الروعة. لقد أتيح لنا ذات مرة، حتى فندق يحمل سمة النجوم الخمسة، وفيه حمام سباحة عملاق. كلا، كلا، فقد كان هنا لمَّا يفتح بعد، لأنه كان مفرطاً في البرودة، ولكن الطعام أيضاً كان رائعاً! وكذلك خمر الشيانتي الإيطالي الأحمر! أجل، بل كانت الأعمال الفنية من الطراز الرفيع، كنائس كثيرة للغاية، أما الأسماء فلا يستطيع المرء أن يحتفظ بها على الإطلاق! والمصورون! لقد وُصف لنا كل شيء بالتفصيل على مدى ساعات، من قبل مدير الرحلة، وفي حالة رحلة دراسية كهذه ينبغي للمرء أن يحصل معها على شيء ما، أيضاً وهذا وحده مجهد جداً. ففي كل يوم مدينة أخرى، ولكن كل شيء رائع أصيل، بالفعل!».

وكان من حسن الحظ أنّ الذاكرة تحتفظ، على الأغلب، بكل الانطباعات الإيجابية جاهزة.

ولا يريد المرء بحال من الأحول أن يسلّم بأن المسألة لم تكن إلا جهداً مرهقاً وبأنَّ صور العذراء والقد يسين كانت، جميعاً، تبدو متشابهة حقاً. وكان الواحد منا ما عاد يصغي أبداً إلى التاريخ الذي عاش فيه المصوّرون الإيطاليون ذوو الأسماء الصعبة. كلا، فبهذه الطريقة لا يستطيع المرء أن يرى هذا. على أن كل الناس الذين سبق لهم الوجود في فندق أومبريان، قد تحدثوا عنه حديث المتحمّس.

وتعدّ المعاذير المبنية على وجهات النظر، والخاصة بالرحلات والإجازات متواترة على وجه الخصوص، وذلك أن الواحد منا يتحرّج عن التسليم بأن التحمّس للفن عند معارفنا لم يؤثر فينا، وأن فولكلور الأديرة

القديمة والأزقة المتعرّجة أحدث فينا أثراً يوحي بأنه بائس خَرِب إلى حد بعيد. وما هي إلا هذه الأعمدة المكسرة وبقايا الجدران، دائماً، في التنقيبات - ماذا يجد الناس في ذلك فحسب؟ وهكذا يُؤثِر المرء أن لا يخرج عن إطار الثقافة العامة والحماسة العامة. فإذا أثنى القوم جميعاً على ذاك بهذه الطريقة فستكون الإجازة ناجحة لدى النظرة الاستعادية، وسرعان ما يغدو المرء نفسه مقتنعاً: لقد كان هذا رائعاً حقاً.

٣- أخبار العمل

وفي حالة عمليات تأمين الحاجات والأمتعة والمشتريات تعد المعاذير المبنية على وجهات النظر بمثابة حماية إضافية للذات.

لقد كان هذا مواتياً بصورة مطلقة، عشرة آلاف مارك لقاء العربة القديمة! كلا، بل كان هذا أول الأمر، اربعة عشر ألف مارك، ولكن الناس يتبجحون دائماً فيسرفون في التبجّح، وفي النتيجة النهائية لا يكون في المسألة شيء كثير، فإطارات المطاط لم تكن من النوع الأول، وكان هو لم يلاحظ على الإطلاق أن الباب الأيسر كان يعلق بقفله قليلاً - أجل - من حسن الحظ أنني تخلصت من السيارة. لقد قال لي السيد مولر أيضاً إن مبلغ عشرة الآلاف خليق أن يظل بعدُ رخيصاً، وهو الذي يفهم بعض الفهم في السيارات!».

وهنا تجري عن طريق المعاذير الملونة تلويناً يسيراً، التغطية على بعض العيوب التي لا يريد المرء أن يكشف عنها للناس جميعاً. أتُراني لم أُخدع! وفي أمثال هذه المجادلات يكون من السهل على المرء أن يؤمن هو ذاته بذلك، إذا ما كرّره بالقدر الكافي، وذكره في كل مكان، ورددده.

«أقول دائماً، أيها الغافل فلتتنبّه! لا يستطيع قيّم الفندق أن يستغفلني بذلك أبداً! وقد جعلني قبل ذلك من أهل الشطارة. أجل بالطبع، لا بدّ لي من التجديد... وهذا أمر أعرفه أيضاً! أما كيفيته - فذلك ما أقرره أنا! وليشكُ هذا من ذلك قدر ما يشاء - فلن يستطيع أن يحصل مني على قرشٍ واحد فوق ذلك، وإذا شاء أن يطلب مصوّره - فأنا أعرف ما سوف أصنع!».

وبعد أسابيع:

لقد شبعت من هذا، ببساطة، يا عزيزي! لقد أوعزت بصنع كل الأبواب أيضاً - فهذا أمر يمكن إنجازه كله دفعة واحدة، أما المصور فعلاقتي معه على ما يرام... وأنت تفهم ما أريد أن أقول، أجل أجل! هذه النقود التي أضيفت - من حسن الحظ أنها لا يقع عبؤها على رجل مسكين!.

وكلما أكثر المرء من الحديث عن هذا ازدادت الكلمات سلاسةً وقابليةً للتصديق. وفي النتيجة النهائية ألم نحصل حتى على شيء رخيص؟.

أما الموثوقون الذين نألفهم فربما ندلي إليهم بالحقيقة وبالمعاذير المبنية على وجهة نظر مألوفة لدينا جميعاً، ونحن لا نلاحظها أبداً على الأغلب. أما المعاذير الأخرى فتكون أكثر تواتراً. ولكن لما كان الناس جميعاً يستعملونها فإنه ما من أحدٍ ينتهي إلى الفكرة التي تحمله على أن يشير إلى هذا باسم المعاذير.

الرجاء أن تلاحظ:

هناك طبائع محظوظة تضع على عيونها على الدوام تقريباً، من دون قصدٍ سيء، نظارة ذات لون وردي. وهي تجني لنفسها ببساطة، الجانب الإيجابي. وهذا يعني على كل حال أن الكأس نصف ممتلئة.

والبيئة في رأيها تتذبذب قليلاً: فهي بالقياس إلى فريق من رهطها طبائع مستبشرة بهذا العالم، والأغبياء - وهنا تتوقف المسألة أيضاً على وجهة النظر!.

٤- الأكاذيب الرحيمة

ما كان ينبغي للمرء أن يقوله وما يحسن به أن يسكت عنه:

وهنا توجد ألوان كثيرة من الصراع الثقيل عند حدود الألم. فماذا ينبغي للمرء مثلاً أن يقول لمن أصيب بمرض عضالٍ، وماذا ينبغي أن يقول لإنسان بات موته وشيكاً؟

لقد ظل هناك، على مدى كثير من القرون عزاء الإيمان والوعد بالخلاص في السماء. فإذا تمَ النطق بهذا بقناعة وإيمان، وافتراضه مع اقترانه بمثل ذلك من الإيمان في القلب، لم يحتج الأمر إلى كلام آخر، ولكن حضارتنا الغربية والشكوك الآخذة في الاتساع، في مسألة الإيمان، تضع ذوي القربى، والأصدقاء والمعالجين، على نحو تزداد حدته زيادة مطّردة، في مواجهة سؤال: هل أقول الحقيقة.. هل أقول جزءاً من الحقيقة - أم أختار الكذب؟

وثمة مراجع تزداد بسرعة بالغة، تتناول هذا الصراع. فمن الصعب صعوبةً لا حدّ لها أن يتخذ المرء هنا القرار الحاسم الصحيح. وقد قرأت - قبل سنين - ملاحظة أثرت في نفسي أيما تأثير.

وهي تفيد أن تيودور شتورم (وهو أديب ألماني) كان يعاني في سنوات حياته الأخيرة، من تشنجات شديدة وآلام في المعدة. وفي النهاية عرف أقرب ذوي قرباه إليه أنه لا توجد فرص للشفاء من سرطان الأمعاء- ولا فرص للبقاء على قيد الحياة، وأشار المرة بعد الأخرى، إلى أن أوجاع المعدة البالغة الإزعاج سوف تنقضي ذات يوم بالرعاية الحسنة.

وفي هذه الحقبة كتب شتورم أهم أعماله «فارس الحصان الأبيض» وقد أخذت منه الرواية كل مأخذ، وكان يركّز على عمله أعمق التركيز، واستطاع أن ينهي الأقصوصة على الرغم من كل الآلام. فهل كان ذلك راجعاً، يا تُرى، إلى الرعاية القائمة على التضحية أم إلى الأمل في أن تنتهي معاناته؟ أم هل أثّر في نفسه الصمت الذي ظلوا يستمسكون به حتى اللحظة الأخيرة، أي كتمان الحقيقة الخبيثة، وهذه الأكذوبة الرحيمة، إلى هذا المدى الذي بعث الطاقات الإبداعية التي لم تكن مقدّرة، ونشّطها أم كان ذلك امتنانه الذي لم يعبر عنه بالكلام وفَعالُ نفسه من جراء هذا القدر البالغ من المحبة هما اللذان حلقا به بجناحين وتركاه يشبُّ عن طَوْق الخوف من الموت؟ أما أنا فتبدو لي الإمكانية الثانية أكثر رجحاناً بالقياس إلى إنسان مبدع. وأما الحقيقة فلم يطلع عليها أبداً، بالمناسبة، والأكاذيب الرحيمة - مهما كان موقف المرء منها - ليس لها أدنى علاقة بالمعاذير.

ولعل من أصعب المهمات أن تعزي إنساناً في حالة الحداد - ونحن نتعرض جميعاً لمثل هذا الموقف ذات مرة - فماذا ينبغي للمرء عندئذٍ أن يقول.

وأنت تعلم مدى إقناع هذه الكلمات: لقد اختاره الله لجواره، وقد وجد الآن سكينته في الرب - سيكون دائماً حواليك وسيقف إلى جانبك - إنه معك دائماً مثلما أن الله معك.

أما أقوياء الإيمان فيجدون في هذه الوعود العزاء والسند. وأما الذين قلّ رسوخ قدمهم في الدين فيمكن أن يجدوا، في غمرة الألم الأول تخفيفاً من وطأته، وعوناً في أمثال هذه الكلمات.

ولكن إذا لم يكونوا هم أنفسهم يؤمنون بأمثال هذه الأواصر الإلهية فلن ينطقوا بهذه الجمل بدافع الحرج، لأن الناس جميعاً يقولونها، ولأنها مكتوبة في كل مكان! إنهم يستطيعون أن يقولوا إنها لنعمة أنه تخلص من الآلام. أو يقولوا: إنها لنعمة أنه رحل عن هذه الدنيا هكذا من دون آلام وإذا لم يكن في وسعهم أن يقولوا هذا أخلدوا إلى الصمت وعانقوا الإنسان اليائس وبكوا معه وكشفوا عن تعاطفهم ووقوفهم إلى جانبه بصمت.

أما أصحاب الطبائع الشبابية فيتجاوزون الشعور بالصدمة والتأثّر، في كثير من الأحيان، بشعارات مثل: «لا بد لنا، نحن جميعاً أن نعتقد بذلك!».

«هذا أمر يصيب الناس جميعاً!».

«الحياة تستأنف دورتها من جديد، وأي شيء في هذا!».

«إن أفضل الناس هم الذين يموتون، دائماً!».

«ونحن هنا أيضاً من أجلك! والزمن يشفي كل الجراح - ولقد شهدنا هذا بأنفسنا!».

وهذه هي معاذير ما يسمى «القشرة القاسية والنواة اللينة في مقابل التأثر الخاص والرجاء أن تفضل أن تحاول ذلك بالتربيت على الكتف أو بالعطاس، أو الإعراض وتحويل مجرى الحديث - أو التنحنح. وهذا يعدّ في مثل هذه الحالة أفضل مخرج من المشاعر الخاصة - إنه مخرج من دون كلام، بل بالصمت.

ولكن يوجد على الحدود أشكال عديدة من الحيدان وتحاشي ذكر الحقيقة. لقد لبث أحدهم مريضاً وقتاً طويلاً، وكنّا نزوره في المستشفى.

«يا عزيزي، إن ما صنعوا بك لرهيب! فأنت تبدو امرأً جديراً باستنزال رحمة الله عليه!»

كلاّ، هذا الكلام لا يستقيم.

«إنك لتبدو في صورة أسطورة، بلا ريب، وبالفعل! لقد أبْلَلْتَ من المرض على نحو رائع، إنه تقدم رائع!».

وهذا الكلام لا يتوارد على لسان المتحدث. فلتبقَ إذاً على حدود الحقيقة. وهذا أمر قابل للتصديق بالنسبة للمصاب، ويمكن أن يكون ممثلاً لحقيقتك أنت.

«إذاً فحالتك اليوم أفضل كما هو ظاهر مما كنت عليه عند زيارتي الأخيرة، وقد أصبحت تستطيع أن تأكل وحدك من جديد، ولا ريب في أن هذا تقدم كبير ثم إن صوتك يبدو أكثر صفاءً أيضاً، وعندما أنظر إليك هكذا... أعني أن عينيك تنظران نظرةً أكثر انطلاقاً ومرحاً!».

أو: «لقد كان يراودني قبل الزيارة شيء من الخوف فعلاً، غير أني الآن مسرور تماماً كما أنّ لونك عاد إليك أيضاً! ولو أُتيح لك أن تخرج إلى الهواء الطلق من جديد...» ولتتمسك بالعلامات الصغيرة التي تعطي أملاً - فإن هذه يمكنها أن تُسهِل عليك أن تصنع منها شيئاً كبيراً وتبالغ بعض المبالغة.

ولكن:

تجنب لدى الزيارات الأولى في المستشفى نقد الأطباء والممرضات قدر الإمكان.

ومثال ذلك السيدة أ.:

«لقد كان هؤلاء وقحين للغاية على الهاتف وسألوني أتراني ممرضتك حقاً وهؤلاء لا يعنيهم شيء من أمري أبداً! إن لهم هنا لهجة لا تعجبني أبداً!».

أو، مثلاً السيدة ب:

«طبيب المحطة يبدو فتى متغطرساً! فإنه لم يبادرني بالسلام بل لم يزد على أن صرخ في وجهي قائلاً في غضب: وقت الزيارة لا يبدأ إلا في الساعة الخامسة عشرة! يا عزيزتي، نصف الساعة هذا! إنه أنموذج غير مستحب!».

أو السيدة ج.: على سبيل المثال.

«إنهن أجنبيات جميعاً هؤلاء الممرضات هنا! وهنَّ لا يستطعن أبداً أن يتحدثن بألمانية صحيحة! فهل تراهنَّ يفهمن كل ما ينبغي لهنَّ عمله؟ لقد كنت خليقةً أن أكون هنا بالغة الحذر في مسألة الحبوب والحقن ونحوها!».

وحتى لو كنت محقاً- فالمريض في وضع لا حيلة له فيه. وهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه ويعتمد على كل طاقات الرعاية ولا بد أن تكون لديه ثقة. وقد كان ينبغي لك، قبل كل شيء، في بداية الإقامة في المستشفى، أن تتجنب مع المريض كل هذه النقاط السلبية عندما تصدر حكمك!

ومثال ذلك السيدة أ.:

«لقد استغرق هذا بعض الوقت ولكننا هنا حذرون جداً حين لا يعرفون امرأً ما. على أن المسألة أفضل هكذا أيضاً. لقد أرادوا وهم على الهاتف أن يعرفوا على وجه الدقة أتراني ممرضتك بالفعل! كلا لقد رأوا هذا الآن وقرروا على الفور أن الممرضة الكبيرة تبدو مماثلة للممرضة الصغيرة إلى حدٍ بعيد!».

ومثال ذلك السيدة ب.:

لقد كنت هنا في ساعة جد مبكرة - ولكن طبيب المحطة قال لي ذلك الآن، وفي المستقبل سوف ألتزم بمواعيد الزيارات. وفي إطار مثل هذه العقدة الكبيرة لا بد لكل شيء أن يكون له نظامه».

ومثال ذلك السيدة ج.:

«ولكن الممرضة القصيرة، ذات البشرة الداكنة تتحدث بألمانية جيدة جداً. لقد فهمت على أية حال كل ما قالته. والمرء يخرج بانطباع مؤدَّاه أنها ذات خبرة جيدةٍ في مهنتها ويمكن الاعتماد عليها في تنفيذ كل التعليمات».

الرجاء أن تلاحظ:

وفي أمثال هذه المواقف على وجه الخصوص تتوقف المسألة على الكلمات الصحيحة. ومن المستحسن قبل زيارة المريض أن يُسِرّ المرء في نفسه الموقف الذي يفيد ما يلي:

أعتزم أن أقابل المريض من دون مبالغات إيجابية زائفة! وذلك أن المرضى يلاحظون الأكاذيب، بل يلاحظون حتى المعاذير التي تنطوي على شطط، ولا يزدادون إلا قلقاً وخوفاً.

ولما كان البشر العفويّون وأهل الصوت المرتفع أنفسهم يتحفظون بعض الشيء ويتراجعون ويغضّون أصواتهم ويصبحون أكثر رقةً ودماثة، على غير إرادة منهم، فالرجاء أن تزن كلماتك، ولتتوقف عن الحديث بعض الفترات، ولتتجنب الصيحات غير المتروِّية، «أليس المكان هنا ضيقاً! يا عزيزي، ثلاثة في حجرة واحدة! ولا توجد دورة مياه! إنه لأمر مفزع!» أو شيئاً من هذا القبيل. وعندئذ توفر على نفسك المعاذير بعد هذا.

«لا بأس، إذاً - المكان ليس بالضيق كثيراً. أيضاً - وربما تحصل عما قريب على حجرة ذات سريرين - والمأمول أن تكون مقرونةً بدورة مياه!»

وقد يكون مما يعين ويساعد على أن يعقد المرء عزمه في قرارة نفسه قبل قرع الباب والدخول، بقوله: «لا أريد أن أبعث الفزع! ولا أريد أن أُظهر أني يائس في صدد الحالة التي يبدو بها المريض!».

ومن العادات المستحسنة جداً أن يبتسم المرء، قبل أن يدخل، من دون أن يفتح شفتيه. ويُستحسن، على كل حال، دائماً، وفي كل مواقف الحياة الصعبة، أن يتخذ المرء هذا التدبير اليسير. وتستطيع أن تسمي هذا «معذرة إيمائية».

فلتجرّب هذا بضع مرات أمام المرآة. أنت تبتسم ابتسامة يسيرة وشفتاك مغلقتان. وليست هذه بالابتسامة الصفراء، الساخرة! وسوف تلاحظ أن وجهك يحدث انطباعاً يوحي بتضاؤل التوتر فيه، وبأن العينين أصبحتا أكبر، وأكثر صفاءً وهدوءً، وأن الصوت والكلمات ينسجمان مع هذا التعبير من دون تشنّج. ولتفكر أيضاً، وبصورة إضافية، في هذه الأثناء، قائلاً:

«إنه ليسرّني أنني هنا، وأنني أستطيع أن أزورك، وسوف أبثُّ في نفسك الشجاعة» أما أن تعرض إعراض من تولاّه الفزع أو تبكي، فذلك ما سوف يُسجّل من قبل المريض - ولا تستطيع، بذريعة ما، أن تمحو أثر هذه الصدمة العفوية. وفي أمثال هذه اللحظات يترتب قبل ذلك تمثّل الموقف المطلق: القدح ما زال نصفه ملآن.